الفصل السابع

مواقف من حياة الحجاج

مواقف من حياة الحجاج

للحجـاج مواقف كثيرة علـى مدار عمره بعضها اتسـم بالعنف والقسـوة وبعضها اتسـم بالعفو والتسـامح وبعضها اتسم بالتواضع والأدب وبعضها اتسـم بالطرافة والفكاهة .. فى هذا الفصل سـنورد قصصـاً من حياة الحجـاج إن دلت فإنما تدل على شـخصية يصعب فهمها أو التعامل معها .. شخصية شملت جميع المتناقضات فلا تعلم إذا ما كان طاغية أو متسامح أو متواضع ..

* * *

من المواقف التى تدل على فصاحته ما رواه الشُعبى حين قال :

سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد .. يقول :

(أمـا بعد .. فإن الله تعالى كتب علـى الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقـاء فلا فنـاء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لمـا كتب عليه الفناء .. فلا يغرنكم شـاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل)[1]

قال أيضاً الحسن البصرى فى أمر فصاحته :

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الثانى عشر – ١٤٢

وقذتنـــى[1] كلمة سمعتها من الحجـــاج .. سمعته يقول على هذه الأعواد[2] :

(إن امـــرء ذهبت ســـاعة من عمره فى غير مـــا خلق له لحرىّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة)[3]

و يقول أبو عمرو بن العلاء فى أمر رجحان عقله :

(ما رأيت أحداً أفصح من الحسن البصرى ومن الحجاج)

فقيل :

(فأيهما كان أفصح ؟)

قال :

(الحسن)

وقال عقبة بن عمرو أيضاً :

(مـــا رأيت عقول الناس إلا قريبـــاً بعضها من بعض إلا الحجاج

(١) أى صرعته وأثرت به

(٢) الأعواد هى المنابر

(٣) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١٢٣

وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس)[1]

وكان مالك بن دينار يقول :

(ربمـا سمعـت الحجاج يذكر ما صنع به أهـل العراق وما صنع بهم فوقع فى نفسى أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخلصه للحجج)[2]

* * *

و إذا كان هـذا فى أمـر فصاحته ورجحان عقله فماذا عن المواقف التـى تدل على تقديره للأخر .. من أشـهر تلـك المواقف موقفه مع السـيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها حينما أراد أن يأتى بها بالقوة وبعث إليها أحد أتباعه فرفضت فذهب إليها وهو ينوى شـراً فجادلته السيدة أسماء لما قال لها :

(كيف رأيتينى صنعت بعدو الله ؟)

و كان يقصد ابنها عبد الله بن الزبير رضى الله عنه فقالت :

(رأيتك فسـدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك .. بلغنى أنك تقـول يا ابن ذات النطاقين .. أنـا والله ذات النطاقين .. أما أحدهما

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١١٩

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٤١

فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبى بكر وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه .. أما إن رسول الله حدثنا أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً فأما الكذاب فرأيناه[1] وأما المبير فلا أخالك إلا إياه)[2]

فرجع عنها الحجاج ولم يزيد كلمه بالرغم من أنه أتاها وكان ينوى بها شراً ولكنه وقف عندما وجد فى حديثها منطق فلم يستطع أن يرد عليها ..

* * *

أيضاً موقفه مع عبد الله بن عمر حين خطب الحجاج فى الناس خطبة الجمعة فأطال الخطبة فوقف ابن عمر يقول

(الصلاة الصلاة)

ثم كررها مراراً ثم أقام الصلاة فاضطر الحجاج أن يصلى بالناس فلما انتهى قال لابن عمر :

(ما حملك على ذلك ؟)

فقال :

(١) تعنى المختار بن عبيد الله الثقفى

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٣٤١

(إنما نجـــيء للصلاة فصلّ الصلاة لوقتها ثم تفتق ما شـــئت بعد من تفتقه)

أى صل بنـــا وبعدها فلتخطب فى الناس ما شـــئت ولم يرد عليه الحجاج أو يعاتبه لقدره ومكانته ..

* * *

و موقف أخر حدث مع الحسن البصرى حينما أخذ الحجاج رأيه فى مدينة واسط التى بناها فقال له :

(كيف ترى بناءنا هذا ؟)

فقال الحسن :

(إن الله أخـــذ عهود العلماء ومواثيقهـــم أن لا يقولوا إلا الحق .. أما أهل السماء أيها الأمير فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد غروك .. أنفقت مال الله فى غير طاعته يا عدو نفسه)[1]

فنكـــس الحجاج رأســـه حتى خرج الحســـن من عنـــده ورغم أنه أحضـــره مرة أخرى لعقابه على حديثـــه إلا أنه عفا عنه فى النهاية وأكرمه وأحسن معاملته ..

(١) المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى – باب ذكر ما جرى فى سنين الهجرة – ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

و أخيراً موقفه أيضاً مع الحسن البصرى عندما استدعاه وقد هم به فلما وقف الحسن بين يديه ورأى منه شراً قال له :

(يا حجاج .. كم بينك وبين آدم من أب ؟)

قال :

(كثير)

قال :

(فأين هم ؟)

قال :

(ماتوا)

فنكس الحجاج رأسه بعد أن فهم المعنى الذى أراد أن يوصله إليه الحسن ولم يرد عليه ..

* * *

فإذا كان ما مضى دل على تقديره للأخر فماذا عن تواضعه ؟

من أشهر المواقف التى دلت على تواضع الحجاج كان موقفه مع سعيد بن المسيب التابعى المشهور حينما صلى جواره يوماً ما وكان هذا قبل أن يتولى أى منصب قيادى فجعل يرفع قبل الإمام ويضع

قبله فلما سلم الإمام أخذ سعيد بثوب الحجاج والحجاج يريد أن ينصرف وسعيد لا يتركه يذهب – وكان سعيد يقول شيئاً من الذكر بعد الصلاة – والحجاج يحاول جذب ثيابه منه ليذهب وسعيد لا يتركه فلما فرغ سعيد بن المسيب جمع بين نعليه ورفعهما على الحجاج وقال :

(يا سارق .. يا خائن .. تصلى هذه الصلاة ؟! .. لقد هممت أن أضرب بهما وجهك)

مضى بعدها الحجاج ورجع إلى الشام ثم عاد والياً على المدينة بعد قتله لابن الزبير فدخل المسجد قاصداً سعيد بن المسيب فظن الناس أنما جاء لينتقم منه وخشوا عليه ودخل الحجاج حتى وصل إلى سعيد فجلس بين يديه وقال :

(أنت صاحب الكلمات ؟)

فضرب سعيد صدره بيده وقال :

(أنا صاحبها)

فقال له الحجاج :

(جزاك الله من معلم ومؤدب خيراً .. ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك)[1]

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء السادس – ص ٢٠٢

عرف عن الحجاج سرعة سفكه للدماء وقد ذكرنا بعض تصرفاته فى فصل الثورات التى قامت عليه وكيف أنه قتل فى ليلة واحدة أحد عشر ألفاً من أسرى يوم الزاوية وذكرنا عديد المواقف لأسرى دير الجماجم ولكن هناك بعض المواقف التى دلت على صفح الحجاج وعفوه .. نعم كان يعفو أحياناً .. من تلك المواقف أنه جلس يوماً لقتل أصحاب بن الأشعث فقام رجل منهم فقال :

(أصلح الله الأمير .. إن لى عليك حقاً)

قال :

(وما حقك ؟)

قال :

(سبك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه)

فقال :

(من يعلم ذلك ؟)

فقال :

(أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به)

فقام رجل من الأسرى فقال :

(قد كان ذاك أيها الأمير)

فقال الحجاج :

(خلوا عنه)

ثم قال للشاهد :

(فما منعك أن تنكر كما أنكر)

قال :

(لقديم بغضى إياك)

فقال الحجاج :

(ولنخل عنه لصدقه)[1]

عفـا عن الأول لما قاله فى حقه وعفا عن الثانى لصدقه وعدم كذبه حتى وهو مقبل على الموت ..

* * *

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٨

أيضاً موقفه الشهير مع الشُعَبى بعد دير الجماجم وكان ممن لحق بقتيبة بن مسلم حين نادى منادى الحجاج أن من لحق بقتيبة بن مسلم فهو آمن .. فلما لقيه الناس قبل أن يدخل على الحجاج قالوا له :

(اعتذر قدر ما استطعت)

فلما دخل على الحجاج قال :

(السلام عليك أيها الأمير)

فنظر إليه الحجاج ولم ينطق فأكمل الشعبى :

(أيها الأمير .. إن الناس قد أمرونى أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق .. وايم الله لا أقول فى هذا المقام إلا حقاً .. قد والله خرجنا عليك واجتهدنا كل الجهد فما ألونا .. فما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء .. ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا)

فقال له الحجاج :

(أنت والله أحب إلى ممن يدخل على يقطر سيفه من دمائنا ثم

يقول ما فعلت وما شهدت .. قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف)[1]

موقف أخر يرويه الهيثم بن عدى يقول فيه :

جاء رجل إلى الحجاج فقال :

(إن أخى خرج مع ابن الأشـعث فضُـرب على اسمى فى الديوان ومُنِعْت العطاء وقد هُدِّمَت دارى)

فقال الحجاج :

أما سمعت قول الشاعر :

(حنانَيْكَ من تجنىّ عليك وقد .. تعدّى الصِحاحَ مبارك الجَرَبِ

ولرب مأخوذٍ بذنب قريبه .. ونجا المقارف صاحب الذنب ؟)

فقال الرجل :

(أيهـا الأمير .. إنى سمعت الله يقول غـير هذا وقول الله أصدق من هذا)

فقال الحجاج :

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٩

(وما قال ؟)

قال :

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

فقال :

(يا غلام .. أعـد اسمه فى الديوان .. وابن داره .. وأعطه عطاءه .. ومُر منادياً ينادى .. صدق الله وكذب الشاعر)(٢)

* * *

و روى ابن عياش فقال :

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن أبعث إلى برأس أسلم بن عبد البكرى لِما بلغنى عنه .. فأحضره الحجاج فقال الرجل :

(أيهـا الأمير .. أنت الشـاهد وأمير المؤمنـين الغائب وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ

(١) يوسف : ٧٨– ٧٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١٢٤

فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[1] وما بلغه باطل وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى وهنّ بالباب)

فأمر الحجاج بإحضارهن فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته وهذه تقول أنا عمته وهذه تقول أنا أخته وهذه تقول أنا زوجته وهذه تقول أنا بنته .. وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة فقال لها الحجاج :

(من أنت ؟)

فقالت :

(أنا ابنته .. أصلح الله الأمير)

ثم جثت على ركبتيها وقالت :

أحجاجُ لم تشهد مقام بناته .. وعماته يندبنه الليل أجمعا

أحجاج كم تقتل به إن قتلته .. ثماناً وعشراً واثنتين واربعا

أحجاج من هذا يقوم مقامه .. علينا فمهلاً إن تزدنا تضعضعا

أحجاج إما أن تجود بنعمة .. علينا وإما أن تقتلنا معا

(١) الحجرات: ٦

فبكى الحجاج وقال :

(والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن تضعضعا)[1]

ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل وبما قالت ابنته هذه فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدها فى كل وقت ..

* * *

موقف أخر قيل فيه أن الحجاج خطب يوماً فقال :

(أيها الناس .. الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله)

فقام إليه رجل فقال له :

(ويحك يا حجاج .. ما أصفق وجهك وأقل حياؤك .. تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ .. خبت وضل سعيك)

فقال للحرس :

(خذوه)

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء السادس – ص ٢١٠

فلما فرغ من خطبته قال له :

(ما الذى جرأك علىّ ؟)

فقال :

(ويحك يا حجاج .. أنت تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك .. ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين)

فقال :

(خلوا سبيله)[1]

* * *

كان الحجاج فصيحاً وكان أيضاً محباً للشعر وكان كثيراً ما يعفو عن أحدهم بسبب ما يجده فيه من فصاحه وبلاغة ومن تلك المواقف أنه جيء له برجل توجب عليه القتل وبعد أن جهزوا المكان لعملية الإعدام ورأى بريق السيف فى يد السياف حزن لحاله وأنشأ شعراً قال فيه :

تألق البرق من نجد فقلت له .. يا أيها البرق إنى عنك مشغول

يكفيك ما قد ترى من ثائر حنق .. فى كفه كصبيب الماء مسلول

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١٢٤

فلمـا رأى الحجاج ما كان من حضور ذهنه وجودة شـعره عطف عليه إشفاقاً له وبدأ يعرض على أهل الدية أن يدفع عنه ديته فكانوا يرفضون وكلما رفضوا زاد الحجاج حتى بذل لهم دية لا تدفع إلا فى الملوك ثم قال لحراسه :

(فكوا قيده وخلوا سـبيله فإن من لم ينـس أحبته فى هذا المقام لجدير أن لا يقتل)[1]

* * *

نعـم كان الحجاج يعفـو أحياناً ولكنـه كان يعاقـب أيضاً وكان يستعمل الشدة مع مخالفيه وهناك الكثير من المواقف التى تدل على دمويتـه ومنها ما رواه القاضى أبو الفرج المعافى عن المرأة الخارجية التى تُدعى فراشـة وكانـت ذات رأى بين الخوارج فكانت تجهزهم لقتـال الحجاج ولم يتم الظفر بها أو بأحد من أتباعها وكان الحجاج يدعـو الله أن يظفـر بها أو بأحد ممن تجهزهم وظـل الأمر على هذا المنوال حتى تمكن أصحاب الحجاج من أسـر أحد أتباعها فجيء له به فخر ساجداً ثم رفع رأسه وقال للخارجى :

(يا عدو الله)

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٤٦

فرد عليه الرجل :

(أنت أولى بها يا حجاج)

قال :

(أين فراشة ؟)

قال :

(مرت تطير منذ ثلاث)

قال :

(أين تطير ؟)

قال :

(ما بين السماء والأرض)

فقال الحجاج :

(أعن تلك سألتك عليك لعنة الله)

قال :

(عن تلك أخبرتك عليك غضب الله)

قال :

(سألتك عن المرأة التى جهزتك وأصحابك)

قال :

(وما تصنع بها)

قال :

(أضرب عنقها)

قال :

(ويلك يا حجاج ما أجهلك .. أدلك وأنت عدو الله على من هو ولى الله !! .. لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين)

قال :

(فما رأيك فى أمير المؤمنين عبد الملك)

قال :

(على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين)

قال :

(ولم لا أم لك ؟)

قال :

(إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض)

قال :

(وما هى ؟)

قال :

(استعماله إياك على رقاب المسلمين)

فلما رأى منه الحجاج تعنتاً قال لجلسائه :

(ما رأيكم فيه ؟)

فقالوا :

(نرى أن تقتله قتلة لم يُقتل مثلها أحد)

فقال الخارجى :

(ويحك يا حجاج .. جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك)

قال :

(وأى أخوى تريد ؟)

قال :

(فرعون .. حين شـاور فى موسـى فقالوا أرجئه وأخاه وأشـار هؤلاء عليك بقتلى)

قال :

(فهل جمعت القرآن ؟)

قال :

(ما كان مفرقاً فأجمعه)

قال :

(اقرأته ظاهراً ؟)

قال :

(معاذ الله .. بل قرأته وأنا أنظر إليه)

قال :

(فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك ؟)

قال :

(ألقاه بعملى وتلقاه بدمى)

قال :

(إذن أعجلك إلى النار)

قال :

(لو علمت أن ذلك إليك أحسـنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ خلافك ومناقضتك)

قال :

(إنى قاتلك)

قال :

(إذاً أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك)

قال :

(نقمعك عن الكلام السيء .. يا حرسي اضرب عنقه)

و أومأ إلى السياف ألا تقتله فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه

ويروعه بالسيف فلما طال ذلك رشح جبينه فقال الحجاج :

(جزعت من الموت يا عدو الله)

قال :

(لا يا فاسق .. ولكن أبطأت على بما فيه راحة)

قال :

(يا حرسى .. أوجب جرحه)

يقول القاضى عياض :

(فلما أحس بالسيف قال لا إله إلا الله .. والله لقد أتمها ورأسه فى الأرض)[1]

* * *

رواية أخرى عن قسوة الحجاج رواها محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمدانى حين قال أنه وبعد دير الجماجم أراد الحجاج أن يستولى على أموال بعض أعيان من قاموا بالإشتراك فى الثورة فدفع إليه برجل يدعى ازارمرد ابن الهربذ وأمره بأن يغلظ عليه حتى يعلم

(١) وفيت الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٧ : ٣٨

منه مكان أمواله فلما ذهب به قال له أزارمرد :

(يا محمد .. إن لك شـرفاً وديناً وإنى لا أعطى على القسـر شيئاً فارفق بى)

فرفق به محمد بن المنتشر حتى أعطاه خمسمائة ألف درهم فبلغ ذلك الحجاج فغضب على محمد أيما غضب فقط لأنه خالف أمره ولم يسـتغلظ على ابـن الهربذ وكانت نتيجة ذلـك أن نزعه منه ودفعه لواحد من أصحابه يذيقه العذاب حتى يخبر عن بقية أمواله ..

يقول محمد بن المنتشر :

فإنـى لأمر يوماً فى السـوق فإذا به معروضاً علـى حمار مدقوق اليديـن والرجلين فخفت الحجاج إن أتيته وتذممت فملت إليه فقال لى :

(إنك وليت منى ما ولى هؤلاء فأحببت وإنهم صنعوا بى ما ترى ولم أعطهم شيئاً وها هنا خمسمائة ألف درهم عند فلان فخذها فهى لك)

فقال :

(مـا كنت لآخذ منـك على معروفى أجـراً ولا لأرزأك على هذه الحال شيئاً)

فبلغ الحجاج ما كان فدعا محمد بن المنتشر إليه فلما دخل عليه وجده جالساً على فراشه وهو ممسك بسيفه وقد أخرجه من غمده ثم قال له :

(ادن)[1]

يقول محمد فدنوت شيئاً .. فأعادها الحجاج مرة أخرى فدنوت شيئاً .. وفى الثالثة صاح فيه الحجاج :

(ادن لا أبا لك)

فقال محمد :

(والله ما بى إلى الدنو من حاجة وفى يد الأمير ما أرى[2])[3]

فضحك الحجاج وعفا عن محمد بعد أن صارحه بما حدث .. والمراد توضيحه من القصة هى عنف الحجاج ودمويته فى التعامل مع المخالفين لأمره حتى إذا وصل الأمر لتهديد أحد رجاله المخلصين لمجرد أنه خالف له أحد توجيهاته فقط ولم يخالف أمره بالجملة..

(١) أى اقترب

(٢) يقصد السيف

(٣) تاريخ المقريزى الكبير – الجزء الثالث – ص ٧٩ : ٨٠

و من مظاهر قســوته أيضاً أنه جيء له برجل اسمه حُطيط فسأله الحجاج عن أبى بكر فقال خيراً ثم عن عمر فقال خيراً ثم ســأله عن عثمان فقال :

(لم أولد إذ ذاك)

فقال الحجاج :

(يــا ابــن اللخناء .. أولدت زمان أبى بكــر وعمر ولم تولد زمان عثمان ؟)

فقال :

(لا تعجل على .. إن الناس أجمعوا على أبى بكر وعمر واختلفوا فى عثمان فوسعنى أن أَكِلْه إلى الله)

قال :

(أما والله لألحقنك بالنار)

قال :

(أما ترضى أن تكون مالكاً فى الدنيا حتى تكون مالكاً فى الآخرة)

فقال الحجاج :

(على بصاحب العذاب)

فدفعه إليه وقال :

(أسمعنى اليوم صوته)

قال :

(نعم)

فقال حطيط :

(كذب)

فجعل يعذبه حتى وضع الدهق[1] على ساقيه وكان ثقيلاً فكسر إحدى ساقيه وجعل يقول :

(أنا فلان)[2]

فقال حطيط :

(لعنك الله .. تَتكنَّى على لئن كسرت ساقى)

(١) خشبتان يوضع بينهما الساق ثم يُطبقان عليها حتى تعصر

(٢) كانت وسيلة للتفاخر فمن أراد أن يتفاخر على أحد قال أنا فلان ابن فلان مثلاً

فجعل يعذبه هو ساكت لا يتكلم فأُخبر الحجاج بأمره فدعا به فحمل حتى وضع بين يديه فقال له الحجاج :

(أتقرأ من القرآن شيئاً ؟)

قال :

(بل أنت تقرأ)

فقرأ الحجاج :

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ **حتى بلغ** وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[1]

فقال حطيط :

(وأنت تقتلهم)

فبينا هو يحاوره إذ وقع ذباب على بعض جراحاته فقال : حس[2] فقال الحجاج :

(يا ابن اللخناء .. أتجزع من ذباب ولا تجزع من العذاب ؟)

(١) الإنسان ١ – ٨

(٢) أى يهش الذباب

قال :

(إنى عاهــدت اللَّه عليك ولم أعاهده علــى الذباب .. عاهدت اللَّه لأجاهدنك بيدى ولسانى وقلبى .. فأما يدى فما أجد عليك أعواناً .. وأما لسانى فقد تسمع .. وأما قلبى فالله أعلم بما فيه)

فقال الحجاج :

(على بمسال الحديد)

فجعلت تدخل فيما بين الظفر واللحم وهو ساكت فقال بعض جلساء الحجاج :

(ما أصبره)

فقال حطيط :

(أو ما علمت أن اللَّه عز وجل يفرغ الصبر إفراغاً)[1]

فلمــا لم يجد الحجاج طريقة يعذبه بها فيســمع صراخه أمر به فوضعوه فى عباءة ثم أمرهم بضربه حتى مات من أثر الضرب ..

* * *

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٣٨٠ : ٣٨١

و كان يعذب أهل السجن حتى تختلف ملامح وجوهم فلا يعرفون .. قيــل أنه حبس ابراهيــم التيمى فجاءت ابنتــه فلم تعرفه حتى كلمها .. ومات إبراهيم فى السجن فرأى الحجاج فى منامه فى الليلة التى مات فيها قائلاً يقول :

(مات فى هذه الليلة رجل من أَهل الجنة)

فلما أصبح قال :

(من مات الليلة بواسط ؟)

قالوا :

(إبراهِيم التيمى)

فقال :

(نزغة من نزغات الشيطان)[1]

ثــم أمر به فدفــن .. و روى أن رجلاً أخر اسمــه ماهان الحنفى حملوه من مكة إلى الحجاج فأمر به فوضعوا جسده على قصب مشقوق ثم سحبوه فصار القصب يقطع من لحمه فكان يقول :

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٣٨٤ : ٣٨٥

(أخذت فى حرم اللَّه وأنا بعين اللَّه ونعم القادر اللَّه)

فتركـوه وقـد ذهب ما على عظامه من اللحم فـرق له أصحابه وبكوا فقال :

(لا تجزعوا فإن كانت النار فما أيسـر هذا فيما يراد بى .. وإن كانت الجنة فهذا محتمل)[1]

* * *

و كان الحجاج إذا قُتل رجلاً من المخالفين له فتزوجت امرأته كف عنها وإذا لم تتزوج حبسـها فى قصرِ المسيرين فحبس من قدر عليه من نسـاء أصحاب الأشـعث .. أيضاً من مظاهر إمتهان المساجين فى عهده أنه كان يطعم أهل السجن دقيق الشعير والرماد مخلوطين ..

من فرط قسـوته أنه كان يريد منع كل من ظاهر ابن الأشـعث من أعطياتهـم فيصبحوا بلا مورد رزق وكتـب إلى عبد الملك يعلمه ذلك فكتب إليه عبد الملك :

(إنا إنما نستوجب طاعتهم بإدرار أرزاقهم فأعطهم إياها .. فإن فى ذلك أعظم الحجة لنا عليهم .. وهَبْك حرمت المقاتلة لسوء الطاعة فما بال الذرارى ؟)[2]

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٣٨٨ : ٣٨٩

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٣٨٠

من الروايات أيضاً التى أوضحت أن الحجاج لم يكن يسمح بمساحة من الحرية ما روى أنه خطب فى يوم جمعة فأطال الخطبة فقام إليه رجل فقال :

(إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك)

فأمر به إلى الحبس فأتــاه أهل الرجل وقالوا إنه مجنون فقال إن أقر على نفسه بما ذكرتم خليت سبيله .. فلما اجتمع السجين بأهله طلبوا منه أن يعترف على نفسه بالجنون فقال لهم :

(لا والله .. لا أزعم انه ابتلانى وقد عافانى)[1]

و هذا مثال بسـيط على إحتواء سـجون الحجـاج على آلاف من المظلومين والروايات فى هذا لا تنتهى ..

* * *

مــن ضمن الروايات التى دلت على شــدة الحجاج بل وعن غرابة أطــواره أيضاً قصتــه مع جحدر بن مالك .. وجحــدر هذا كان رجلاً خارجاً على القانون وكان يســكن فى منطقــة اليمامة وقد روع بعض أهلها وقطع الطرق واستولى على الممتلكات فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبــه ويلومه على عدم القبض عليه فكثــف نائب اليمامة جهوده

(١) البيان والتبيين – الجزء الثانى – ص ٢٩٨

حتى قبض عليه وأرسله إلى الحجاج فقال له لما مثل بين يديه :

(ما حملك على ما كنت تصنعه ؟)

فقال :

(جراءة الجنان وجفاء السلطان وكلب الزمان ولو اختبرنى الأمير لوجدنى من صالح الأعوان وشـــهم الفرسان ولوجدنى من أصلح رعيته وذلك أنى ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه فى نفسى مقتدراً)

فقال له الحجاج وكان يعشق الشجعان ويدنيهم إليه :

(إنـــا قاذفوك فى حائر[1] .. فيه أســـد عاقر .. فـــإن قتلك كفانا مؤنتك وإن قتلته خلينا سبيلك)

ثم أودعه الســـجن وأرســـل إلى حاكم كَسْـــكَر يطلب منه أن يرسل إليه أســـداً عظيماً فبعثه إليه فأمر بـــه فجوع ثلاثة أيام ثم أطلقه فى البستان وطلب من حراسه أن يطلقوا جحدر على أن تكون يده اليمنى مقيده وأن لا يعطوه إلا ســـيفاً فى يده اليســـرى ثم اتخذ هو وأصحابه موقعاً يسمح لهم بالنظر إلى ما سيحدث .. فلما رآه الأسد زأر وجرى ناحيته حتى إذا ما اقترب منه قفز نحوه يريد التهامه فتلقاه جحدر

(١) أى بستان

بالسيف فاخترق جسده وخر عليه الأسد فسقط جحدر أرضاً من شدة وثبة الأسد .. عندها كبر الحجاج وأصحابه وخَيَّر جحدر بين العودة إلى بلاده أو الإقامة عنده فاختار أن يقيم عند الحجاج فأحسن جائزته وأعطاه مالاً ..[1]

و هذا مثال بسيط على غرابة طباع الحجاج وكيف أنه ينتقل من النقيض إلى النقيض فجحدر كان خارجاً عن القانون وكان يفعل ما يفعل بالناس حتى انه انتدب أسداً ليقتله قتلة شنيعة لم يقتل بها أحد من قبل ولكنه فى لحظة انقلب إلى النقيض تماماً حين رأى منه شجاعة وإقدام وتناسى عندها تاريخه السيء و وجوب عقابه على ما ارتكبه بل وكافأه وقربه إليه فصار أحد أعوانه ..

* * *

و من الروايات التى تؤكد على غرابة أطواره بل وتسرعه أيضاً أنه رأى فى منامه أن عينيه قُلعتا فاعتقد أن تأويل رؤياه هو أنه سيطلق زوجتاه فطلقهما بالفعل وكانتا هند بنت المهلب بن أبى صفرة وهند بنت أسماء وبعد أن طلقهما بوقت قصير جاءه الخبر بوفاة ابنه محمد وفى نفس اليوم جاءه نعى أخيه محمد وكان والياً على اليمن فقال :

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١٢٥ : ١٢٦

(والله هــذا تأويل رؤياى .. محمد ومحمد فى يوم واحد .. إنا لله وإنا إليه راجعون)

فكتب إليــه الوليد بن عبد الملك يعزيه فكتب الحجاج جوابه إلى الوليد فقال :

(يا أميرِ المؤمنين .. ما التقيت أنا ومحمد منذ كذا وكذا ســنة إلا عاماً واحــداً .. وما غاب عنى غيبة أنا لقــرب اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه .. فى دار لا يتفرق فيها مؤمنان)[1]

* * *

رواية أخرى تــدل على غرابة طباع الحجاج حيث روى عنه أنه وقف يوماً وقال :

(من كان له بلاء أعطيناه على قدره)

وقد عــرف عنه أنه كان جــواداً كثير العطايــا والجوائز فقام رجل فقال :

(أعطنى فإنى قتلت الحسين)

فقال :

(١) تاريخ المقريزى الكبير – الجزء الثالث – ص ٨٧

(وكيف قتلته ؟)

قال :

(دسـرته بالرمح دسراً .. وهبرته بالسيف هبراً .. وما أشركت معى فى قتله أحداً)

فقال :

(اذهب .. فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد)[1]

و لم يعطه شـيئاً وكان الحجاج ناصبياً يعادى علىّ بن أبى طالب وأهله وكان طبيعياً فى موقف مثل هذا أن يكافىء الرجل الذى يدعى أنه قتل ابن الأمام علىّ رضى الله عنه ولكنه لم يكافئه وإذا ما قسـنا هذا الموقف بالموقف السـابق للحجاج مع جحـدر بن مالك لظهر لنا تناقض الحجاج فى إعطاء العطايا أو منعها ..

* * *

و اسـتكمالاً لما سـبق فقد روى أنه من فرط كراهيته لعلىّ بن أبى طالـب رضى الله عنه وذريته أنكر يوماً أن يكون الحسـين من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن بنته فقال له يحيى بن يعمر :

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الثانى عشر – ص ١٤٣

(كذبت)

فقال الحجاج :

(لتأتينى على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك)

فقال :

(قال الله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ [1] إلى قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [2] فعيسى من ذرية إبراهيم وهو إنما ينسب إلى أمه مريم والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ)

فقال الحجاج :

(صدقت)[3]

و على الرغم من حجة الرجل القاطعة وتصديق الحجاج على قوله إلا أنه نفاه إلى خراسان ولم يبقه فى العراق ..

* * *

(١) الأنعام: ٨٤

(٢) الأنعام : ٨٥

(٣) البداية والنهاية لابن كثير– الجزء التاسع – ص ١٢٦

واحد من أشهر مواقفه هو ذلك الذى حدث مع الصحابى أنس بن مالك وتجرأه عليه حين ختمه فى يده إذلالاً له على الرغم من مكانته وخدمته لرسول الله ﷺ عشر سنوات .. يروى ابن حبان فى الثقات عن أزهر بن عبد الله أنه قال :

(كنت فى الخيل الذين سبوا أنس بن مالك وكان فيمن يؤلب على الحجاج وكان مع عبد الرحمن بن الأشعث فوسم فى يده " عتيق الحجاج " ثم قال : لولا أنك خدمت رسول الله ﷺ لضربت عنقك)[1]

* * *

رواية أخرى يرويها الثورى فيقول :

أتى الحجاج بسارق فقال له :

(لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك)

فقال الرجل :

(إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف)

فقال :

(١) الثقات لابن حبان – الجزء الرابع – ص ٤٠

(صدقت .. والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً)[1]

ثم أمر غلامه أن يقطع يده فقطعها ..

* * *

و إذا نحينا جانباً تلك المواقف وعرجنا قليلاً على بعض المواقف الطريفة للحجاج فإننا سنجد رواية الحسن بن محمد بن هلال الصابى الذى ذكر أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره فمر برجل يسقى ضيعة له فقال له :

(كيف حالكم مع أميركم ؟)

فقال الرجل :

(لعنه الله .. المبيد .. المبير .. الحقود .. عجل الله الانتقام منه)

فقال له الحجاج :

(أتعرفنى ؟)

قال :

(لا والله)

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١٢٧

فقال :

(أنا الحجاج)

فـرأى الرجل أنــه مقتول بلا شـك فرفع عصا كانــت معه وقال للحجاج :

(أتعرفنى ؟)

قال :

(لا)

فقال الرجل :

(أنا أبو ثور المجنون .. وهذا يوم صرعى)[1]

و أزبــد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأســه بالعصا فضحك منه الحجاج وتركه وانصرف ..

* * *

رواية أخرى طريفه حدثت بعد موقعة دير الجماجم وبينما كان الحجاج يواجه الأســرى فكان يجبرهم على الإعتراف بأنهم كفروا

(١) الأذكياء لابن الجوزى – ص ١٩٩

قبــل أن يصالحهم فمن اعــترف بكفره قبل منه وصالحه ومن يرفض كان يأمر بقطع رأسه فجاءه رجل من الأسرى فقال له الحجاج :

(أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر)

فقال له الرجل :

(أتخادعنى عن نفسى .. أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون)[1]

فضحك منه الحجاج وأخلى سبيله ..

* * *

كل ما ســبق يؤكد أن الحجاج كانت تعتريه كثير من المتناقضات فى نفســه ولم يكن أقرب المقربين إليه يســتطيع أن يفهمه أو يقيمه تقييماً صحيحاً بشــكل تام حتى إن عبد الملك بن مروان نفسه اختلط عليه الأمر فقال للحجاج يوماً :

(ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه .. فعب نفسك ولا تخبأ منها شيئاً)

فقال :

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٤٨٠/١ – ص ٦٣٣

(اعفنى يا أمير المؤمنين)

فأبى إلا أن يسمع منه فقال :

(أنا لجوج[1] .. حقود .. حسود)

فقال عبد الملك :

(إذاً بينك وبين إبليس نسب)

فقال الحجاج :

(يا أمير المؤمنين .. إن الشيطان إذا رآنى سالمنى)[2]

* * *

و علــى الرغــم من كل ما ســبق ومن تاريخ الحجــاج الدموى فى علاقته مع الأسرى وإقدامه على سفك الدماء على أهونٍ سبب إلا أنه كان يــرى أنه علــى الحق وأنه ما يفعل هــذا إلا تقرباً لله .. دمويته الشــديدة جعلت الوليد بن عبد الملك يتسائل عن إذا ما كان يفعل هذا عن إقتناع أم أنه يفعل هذا تزلفاً وتقرباً من بنى أمية ..

يروى الشافعى أن الوليد بن عبد الملك قال للغاز بن ربيعة :

(١) عنيد كثير الإلحاح

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء السادس – ص ٢١٧

(إنى سأدعوك وأدعو الحجاج فتتحدثان عندى فإذا قمت وخلوت به فسله عن هذه الدماء .. هل يحيك فى نفسه منها شيء أو يتخوف لها عاقبة ؟)

فلما قام الوليد سأله الغاز فقال :

(يا أبا محمد .. أرأيت هذه الدماء الذى أصبت .. هل يحيك فى نفسك منها شيء أو تتخوف لها عاقبة ؟)

فجمع الحجاج يده وضرب بها صدر الغاز بن ربيعة وقال :

(يا غاز .. ارتبت فى أمرك أو شككت فى طاعتك .. والله ما أود أن لى لبنان وسَنِير ذهباً[1] مُقطعاً أنفقهما فى سبيل اللَّه عز وجل مكان ما أبلانى اللَّه تعالى من الطاعة)[2]

* * *

(١) لبنان هى البلد فى الشام وهى مشهورة بجبالها وسَنِير جبل بين حمص وبعلبك على رأسه قلعة سَنير والمراد هنا أن لو كان معه جبالاً من ذهب لاستبدلها بطاعة الوليد بن عبد الملك

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء السادس – ص ٢١٣